امرأة تحت الاحتلال

آمنة الذهبي

الكتاب : امرأة تحت الاحتلال (قصص قصيرة)
المؤلف : آمنة الذهبي
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٢
رقم الإيداع : ٤٢٤٧/ ٢٠١٢
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 -099 -7

الناشر
شمس للنشر والإعلام
٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة
ت/فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٢)- ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٢)
www.shams-group.net

تصميم الغلاف : ياسمين عكاشة

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

امرأة تحت الاحتلال

قصص قصيرة

آمنة الذهبي

تقديم

• يبدو أن العرب كانت تقصد من قولها : (الطير الفصيح من البيضة يصيح) أن الفرد، إما أن يولد موهوبًا، أو لا تنفع معه أية محاولات للتدريب أو التأهيل أو التلميع .

• لم اقرأ لـ(آمنة الذهبي) من قبل، لكنها حسب ظني، ولدت قاصة بموهبة قصصية جيدة.

• (البساطة) هي السمة المسيطرة والمهمة على قصص هذه المجموعة: (هذيان امرأة تحت الاحتلال)؛ بساطة في السرد، بساطة في انتقاء الموضوعات، وبساطة في اللغة. سيجد القارئ سردًا بسيط التنوير/ الذروة في القصص مناسبة وبعيدة عن أسلوب الضربة المفاجئة المباغتة.

• ترتبط بسمة (البساطة) سمة غالبة أخرى هي: الحزن الآسر والاكتئاب الشفيف.

• وعندما أقول سمة (البساطة) فهذا لا يعني خلو القصص من عمق المضمون وثراء المعنى، على العكس من ذلك، هناك ومضات فلسفية تبرق هنا وهناك وترسل أشعتها البعيدة من خلال السطح الشفاف كما سترى في قصص: (أنا قلم الرصاص)، (أمنيات مستمرة)، (جسر يحترف الجنون)، (حسد)، (ديكتاتورية لغة) وغيرها.

• بخلاف التيارات الحداثية وما بعد الحداثية في القصص والتي طرحت بأهم سمة من سمات القاص وهي: سمة (الحكاء) تعود (آمنة) لتقدم لنا قصصًا / حكايات من قلب هذه الحياة تحمل نبض الواقع ورائحة ترابه.

• هذا هو مقدار مسؤوليتنا النقدية : توجيه انتباه القراء إلى قاصة مقتدرة متمكنة، أما مسؤولية القاصة فهي جسيمة، على (آمنة) أن لا (تأمن) وتستريح، وأن تؤمن بالإبداع حد الموت على طريقة (أكتب لكي لا أموت)، تطور أدوات قصتها وتصر على صلة فنها بالحياة والناس والوطن، عندها سيضاف اسمها إلى قائمة القاصات العربيات، وهي القائمة المحدودة أصلاً.

د. حسين سرمك حسن

بغداد المحروسة بالله

٢٩ تموز ٢٠٠٤

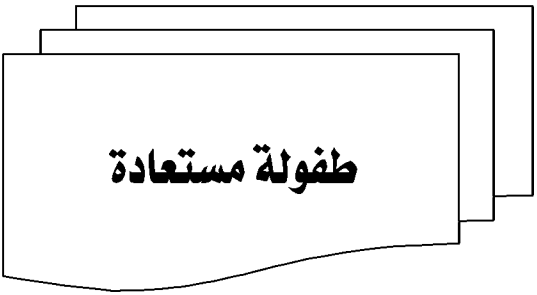

لان أمي ولدتني كبيرة ...

تجدني دائمًا ... أستعيد طفولتي..

أنـا قلم الرصاص

قد تمنح المبراة قلم الرصاص قدرة الكتابة، لكن أيهما الأسعد بالآخر: قلم الرصاص المقاوم أم المبراة التي تأكله شيئًا فشيئًا؟

كل الوثائق المهمة تُوقع بقلم الحبر، رؤساء الجمهوريات، المقاولون، مدعو الثراء، جميعهم يفضلون أقلام الحبر..
والمسكين قلم الرصاص لا يعرف إلا أنامل الأطفال الرقيقة ولا يستخدم إلا للأشياء البسيطة،كأنه يشبهني، مثلي تمامًا ...
هل فكر أحد يومًا بأحزان قلم الرصاص ؟ كآبتة التي لا تشابهها أية كآبة في الدنيا، فهو المسالم، الخجول، المرتبط بالبراءة والخجل، يرتبط اسمه، دون أن يستشيره أحد؛ بالرصاص .. لو أنه الآن يعرف من أطلق عليه هذه التسمية، لفعل به ما تفعله المبراة بالأقلام، لكن قدره أن يحمل هذه الصفة الكريهة، الرصاص، يا لها من مفردة، كم يحمد الله أن قاموس الطفولة خالٍ منها...!

كلما رأيته مستلق على المنضدة مع العشرات من أقلام الحبر شعرت بغربته وسط أولئك المهرجين، أراقبه عندما يرتمي في أحضان الورقة، ينام بين طياتها، وفي لحظات الأمان تلك تنتابه الهواجس والأسئلة : لماذا يُمحى بسهولة ويُباع بثمن بخس ؟

من جعل أقلام الحبر رمزًا للشرف ودليلاً للذوق الرفيع ؟هل سمعنا يومًا أن قرار إعدام أو معاهدة جائرة وقعت بالقلم الرصاص؟ على الإطلاق لا... ولكن هل شعرت أقلام الحبر بالخجل -ولو مرة- من وظيفتها تلك ... إلا يحق له (هو وحده) أن يفاخر ببراءته إلا من عشقه المجنون للورقة.. هذه المغناجة الملساء هل تميز من يحبها أكثر؟ أي نوع من الأقلام يغازل أسطرها؟ هل تعرف أن الرصاص المخزون في المسدس والبندقية غير تلك المحبة التي يلوب بها هو؟ ربما لا يهم الورقة ذلك.. فما الذي يجبره إذن على الاستمرار بمهماته الكتابية، ماذا لو أن اللعوب هجرته إلى قلم حبر مذهب؟ هل يعلن الإضراب؟ وعن ماذا ولا وجود لحياته من دون الكتابة؟ من دون الورقة كم بكى في الليل، كم اشتكى، كم انتزع ممحاته المغروسة في رأسه ورماها على الأرض وبقي منتظرًا أصابع تحتضنه دون أن يبالي ماذا ستملي عليه أن يكتب..

ولكن ما ذنب الممحاة المسكينة التي تكره أقلام الحبر ولا تتعامل معها أيضًا، لأنها تنظر إليها بازدراء وتعشق القلم الرصاص لأنه يجعلها على رأسه، هل يفعل العشق كل ذلك، من أصاب الآخر بعدوى العشق، أنا أم قلم الرصاص؟.. هل له أحاسيس كأحاسيسي وأشواقي.. ومن سينصفنا؛ أنا من الزمن وهو من المبراة التي يعانقها منتشيًا راقصًا متمنيًا لأمنياتها، أمنياتها

بأن يدخل قلم الحبر بين شقيها ولو للحظة.. لحظتها.. من يعيد الحياة لقلم جفَّ الحبر فيه، وكانت نهايته سلة المهملات.. الذي كان منظره يوحي بالترف والقوة في الصنعة لكنه لم يحتمل شفرة المبراة التي تمر على قلم الرصاص عشرات المرات حتى أنفاسه الأخيرة وهو يكتب مثل أي مقاتل عنيد... لا لا لا.. القتال يؤكد الصفة الملصقة به لذلك لا يريد أن نصفه بها...

أنا وقلم الرصاص، نحمل صفات مشتركة، كلانا لا يحتاج لكي يبدع إلا لمبراة؛ مبراة تبدو لا قيمة لها بعيدًا عنا... لكننا بدونها لا نستمر بالحياة..

أينا أسعد: أنا ومبراتي الغامضة.. أم قلم الرصاص ومبراته التي لا تعرف سعادتها سوى الورقة.. ورقة ربما يجعلها قلم الحبر ورقة مهمة أو يجعلها قلم رصاص أول خطوة في درب (النار والنور)... أم مبراتي التي تحفر خندقا على خدي تسير فيه أنهار الدمع... أم أنا.. أنا.. أنا التي تفكر بهموم قلم رصاص ما زال مستلق على المنضدة مع أقلام حبر مذهبة.

• • •

الظل يحلق أيضًا

سابق الكبار الصغار في تلك الظهيرة التموزية اللاهبة لاعتلاء أسطح المنازل، الأبصار شخصت إلى السماء، والأصابع تشير، طائر كبير بجناحين واسعين يحوم في الأعالي؛ بينما ظله يحوم على الأرض..

بكل جنون الطفولة كنت أتقافز هنا وهناك أحاول الوقوف فوق الظل..

يدور في السماء والظل يدور على الأرض.. وأنا مثلهما أدور..

أعوام مرَّت، والصورة راسخة في الذاكرة.. عيون تراقب البعيد، وأقدام تطارد ظلاً ما.. شتان بين الاثنين.. لكن أحدًا في داخلي كان يلاحق الوهم.. أشياء لا تحدث قرب طائر من النوع نفسه في حديقة الحيوانات تراه متى تشاء، ينشغل الزائرون عنه بالتحادث، وأنشغل عن الجميع بأثاث ذلك النسر الحبيس، صخور متوسطة الحجم صفت بأيادي إنسان لا الطبيعة، بقايا شجرة يابسة دست بينها ومجرى ماء تديره مضخة كهربائية، وعند القمة، انتصب هو بشموخ.. مترفعًا عمن حوله من دون ظله هذه المرة، فرق كبير بين أن تنظر إلى نسر أمامك وبين آخر يحوم فوق رأسك، آه لو أنه يحلق الآن، من أجل كبرياء

النسور كلها .. لو أنه ينتقل من صخرة إلى أخرى كما اعتاد في الجبال.. حاملاً بين مخالبه شيئًا.. وليكن أي شيء، لا بأس إن كان رأسي، حينها من بين مخالبه سأمرُّ فوق الرؤوس مقترنًا بظله على الأرض..

صفق جناحيه بقوة ثم مدَّهما إلى الجهتين مرتفعًا في الهواء صانعًا دائرة صغيرة في فضاء قفصه، الظل هو الآخر يحاول الآن أن يجد له مكانًا في القفص..

يشهق الجميع حوله فرحًا واندهاشًا.. يقذفونه بالحجارة والعلب الفارغة، لكنها لا تطال النسر فتنالني الضربات.. لكن المهم، أن النسر يحوم؛ وكذلك الظل، ومثلهما أنا..

أصل إليه بشق الأنفس، أخيرًا أمتطيه، ما أروعك أيها الظل الصديق.. أقولها له..

يحلق مزهوًا يرتفع بي ويرتفع، تلاحقنا الأنظار، حيث لا يطالنا أحد.. ويبقى وجه ذلك النسر الحبيس بين القضبان وأجساد البشر، يراقبنا بحسرة.

• • •

صناديق عتيقة

بدأت أشعة الشمس تغزو المكان بحذر، كان الخيط الفاصل بين الليل والنهار قد اختفى لتوه، بقايا غيوم انتشرت في السماء كأنها قطن أهمله النداف في نهاية يومٍ مضني.. وهناك على الطرف البعيد تبدو غرفة جدتي عالم كامل من السحر والخيال.. لكل شيء فيها حكاية كحكايا الساحرات في ليالي الشتاء الطويلة. ولجدتي؛ مثل كل النساء القرويات؛ عباءة سوداء ونعل كلما أحالته المشاوير إلى التقاعد غيرته..

كان منظر النسوة في السوق يشبه فصيلاً عسكريًا بقيافة واحدة، حتى نكاد نحن الصغار الذين نرافق جداتنا في رحلة السوق اليومية لا نميز إحداهن عن الأخرى إلا عن قرب ..

تنشغل الجدات في جولة السوق والأسعار بالقشب والأحاديث اللاتنتهي؛ هذا بائع جيد وذاك لا يطاق، أما نحن الصغار فيسرقنا الازدحام ومشاهد البضائع الملونة من حلوى ودمى..

لحظات وتسافر عيناي إلى شاطئ ترسو فيه دمية على شكل قارب،قد يحملها الشراع إلى جزيرة آمنة وربما تنكسر الصارية، صوت البائع المنادي عن بضاعته مزق الحلم.. انتبه بعدها فأجد يدي خالية من طرف عباءة الجدة، كأنما ثوابت

الأرض تتغير تلك اللحظة ليس سوى الدموع الغزيرة، من تمسك يدي فعباءة جدتي هي الحد الفاصل بين الخوف والأمان، الضياع ودفء البيت.

كبرنا وعقود مرت لم يعد الباعة يفترشون الأرض، لم تعد الأسواق هي الأسواق، وحتى النسوة، لم تعد لهن عباءات يتشبث بها الصغار الآن بعد شتاءات وشموس، أتساءل .. أين اختفت عباءة جدتي ؟؟؟؟

قادتني خطواتي إلى الغرفة القديمة حيث ينام صندوق هو الآخر أقدم من ذكرياتي ومثلما يفتش البخيل عن قطعة نقد أضاعها رحت أبحث عن لحظة حلم كنا فيها نشعر بالأمان.. ذلك الإحساس الضائع كدفء جدتي، أصابعي كانت تبحث بين العباءات وربما تفتحت في ذاك الصباح الندي صناديق كثيرة في غرف أقفلت من زدهور وراحت أصابع أترابي تبحث هي الأخرى عن عباءات صادقت أيديهم في سنوات الأمان....

الشمس أوشكت على الغروب ونتف القطن غابت حيث لا أدري، مثلما غابت عباءات جداتنا وغابت معها أجمل لحظات العمر وأكثرها حنانًا...

• • •

أمنيات مستمرة

بماذا تفكر الشجرة في يوم الميلاد.. هل تنتظر تلك اللحظات؟ تحسب لها الأيام؟ تصبر وتصبر.. حتى تجيء.. فتقف منتصبة بكامل زينتها وسط قاعة كبيرة أمام أنظار المتلهفين، هل تفرح لتميزها، أم تبكي لما ستؤول حالتها إليه بعد انتهاء الكرنفال... سويعات فقط وتتحول بعدها إلى كومة نفايات لا قيمة لها...

أسئلة ظلت تجول في رأسي تبحث عن جواب... جواب من شجرة علق عليها الحاضرون أمانيهم وانصرفوا يرقصون فرحًا بالعام الجديد.

أهكذا تأتي النهايات..؟ لكل دور يؤديه ضمن نظام لا نحيد عنه، الأرض تدور حول الشمس وكواكب لا مرئية تدور حول كواكب لا مرئية أيضًا، أما هنا فالكل يدور حول شجرة في ليلة ميلاد ما، أتساءل ومن لا يدور... لذلك ندور ولا نفكر... يقولون إن الأشجار لا تفكر ولا تدور لكنها دائمًا تسير نحو الأعلى.

قبل أيام قالت صديقتي في لحظة بلا انتماء، من يفكر لا يتعب، ماذا عني أنا مدمنة التفكير والتعب، لم يحدث يومًا أن بحثت عن الراحة.

عقارب الساعة كانت تتسابق لتودع آخر دقائق العام الذي كان قبل عام هو العام الجديد، الكل يتمنى للكل عامًا سعيدًا، مثلما تمنوا في العام الماضي، لكنها مجرد أمنيات ستذهب أدراج الرياح مثلما ذهبت الأمنيات التي قبلها وقبلها وقبلها، فالمشهد تكرر، الكل كان هنا قبل عام، ويكون هنا في العام المقبل، والحال على ثبات، نحن ندور حول شجرة لا ندري بماذا تفكر، ندرك أننا واحد.. نتمنى أن نتوحد في كل عام و بالنسبة لي في العام المقبل سأتمنى مثل أماني العام الماضي... أمنية لكل الأعوام.. أن أبقى أفكر، أفكر، ويبقى الكل يرقص ويدور وندور... وتدور... وتدورون ... حتى تصاب الأرض بالدوران والناس بما لا أدريه...

عام سعيد إذن...

ولكن ماذا عن الشجرة...؟!

• • •

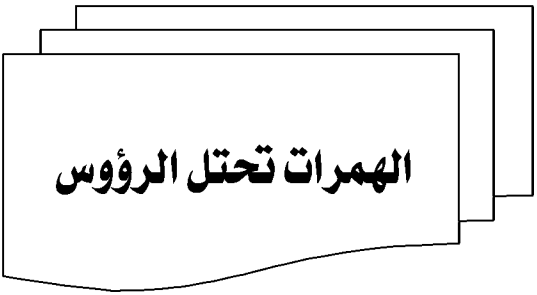

قلبي .. قلبي .. هل أملك إلا أن أدعوك

قلبي، وأعود إليك لنواجه الهمرات !

أسلاك شائكة

أعمدة كونكريتية متوازية انتصبت على الأرض، تربط بينها أسلاك شائكة، فاصلة الأرض إلى جزئين، وإن كانت السماء من فوقها بقيت واحدة.
الوجوه اختلفت في جزئي الأرض التي أثرت الاختلاف.. خطوة بعد الأسلاك (الأرض غريبة) أخرى إلى الوراء (الأرض أرضي) لونها لون بشراتنا.
بدت السماء كأنها قطعة قماش من القطيفة السوداء.. مزينة بالكرستال.. تنتظر أيادٍ شاعريةٍ تصنع منها فستان سهرة...
لو كان معي الآن أحد يفهم إحساسي لأثرت سؤالاً ملحًا: لماذا لا يقسمون السماء بالأسلاك الشائكة ليميزوا سماءهم عن سمائنا؟؟؟

عبرت الأسلاك الشائكة.. دخلت أرضًا غريبة، أرض من حجر ورمل، لا وجود لذرة تراب فيها، يابسة لم تسق منذ بدء الخليقة.. أرضي وحدها التي سقاها أهلي بكل شيء، أبسط ما فيه الدم، لذلك أراها أليفة قوية، تستجيب لمعاولنا إن هي غازلتها، تشعر بنا، ونشعر بها تصيح بنا: أنا وحدي أعرف سر ما يجري، فالإرهاب! هو أن يترك الإنسان وطنه. وإن كان

موظف الجوازات لا يدرك أن كل من يترك أرضه إرهابي، نصف أبناء وطني هم من فصيلة هؤلاء الإرهابيين، وعندما ملّوا الإرهاب عادوا وبنوا مصانع كبيرة ليجدوا أنفسهم مسورون بالأسلاك الشائكة ينصبون أعمدتها الكونكريتية بأيديهم..

النصف المتبقي سيختار الآن الإرهاب لكنه لا يقوى على هجر أرضه، أول شروط الإرهاب؛ أهون عليهم أن يضربوا طوقا من الأسلاك الشائكة حول القلب حتى لا يمتد النبض فيه إلى الحجر أو الرمل في أرض لا علاقة لأقدامهم بها، ويبقى الدم يتدفق للأرض الأولى يزرع ذراتها بالحياة ويوم ينام فيها يحتضنها إلى أبد الأبدين ينصف كل منهما الآخر من قرف الأسلاك تلك التي ربطت على أعمدة متوازية فاصلة سطح الأرض فقط إلى جزئين.

• • •

فارس السراب

رنت ساعة بغ بن في مذياع السيارة معلنة وقتًا لا علاقة لنا به نحن الراحلين بين مدننا كالغرباء، لكل منا مقصده في الرحلة، أنا مثلاً أجبرني التعيين خارج مدينتي على المرور بهذه الطرقات، مثلما صيرت الحرب أبي خبيرًا بمدن الجنوب والشمال.. كم عامًا أضعناه في معرفة خطوط الطول والعرض وفي التمعن بجغرافية العالم، صرنا نعرف عن عواصم أوروبا أكثر مما نعرف عن بلادنا، حتى عندما نسافر بين مدننا نسمع إذاعاتهم، وإذا نمنا نحلم بمدنهم، وإن صحونا نخالط حديثنا بلغتهم ليقولوا عنا مثقفين.

تعطلت السيارة ليتعطل معها نزاعي مع نفسي، كانت المنطقة صحراوية لون الرمل فيها يبدع في رسم السراب على خط إسفلت يقسمها نصفين، الشمس عمودية في آب (اللهاب) الكل محتار في أمره، إلا هو ذلك السائق حامل هم الجميع، يندب حظه تارة ويلعن السياقة والسيارة تارة أخرى، لأنها لم تجد إلا هذا الشارع المقطوع لتعطل فيه !!.

الشارع مقطوع حقا فماذا لو نفذ ماء الشرب؟ لو خرج لنا قطيع ذئاب أو عصابة لصوص درت حول السيارة؟

بحثت عن ظل أحتمي به، الظل أصغر من حجم السيارة والآخرون احتلوه قبلي، كان السائق قد فتح غطاء المحرك بحثًا عن العطل..

مرَّ الوقت، ظل السيارة كبر معه وانحرف سار قلمي المغلق عند حدود ظل السيارة راسمًا سيارة أخرى، وانتشرت عدة السائق على الأرض في وقت حثت فيه الشمس مسيرتها صوب الغرب، صار الظل حينها يتسع لحدود سيارة أخرى، وأخرى، وأخرى، وأوشكت على أن تصير ثمانية على الرمل طبق الأصل.

حلَّ الظلام، لم أشعر بمرور الوقت، لكن المشكلة أصبحت أكبر، كل السيارات غير قادرات على السير، ولو كتب لهن السير كيف سيقود السائق ثماني سيارات في آنٍ واحد، ولو أخذ واحدة وترك الباقي من يحمي سياراتي من اللصوص ؟

• • •

ميدوزا عراقية

من أربعة أجزاء، كان يجب أن يتكون قلبي مثل كل البشر من بطينين وأذنين، أو هكذا تصورته، لا أدري لماذا انتفض عندما سألته: من أربعة أجزاء تكونت أهذا صحيح ؟
لم تكن الأجزاء الأربعة المعتادة عند الناس؛ هي نفسها التي عند قلبي، ففيه أربع ممالك عتيدة للصمت، الألم، الحسرة، والحزن. والطرق بين الممالك سانحة على مد جسر الصبر، طرق تسير فيها جحافل لا تفرقها إلا الأسماء...

أذهلني قلبي في حديثه الأول معي. مسكين، فكل من يزور مملكة من ممالكه رحل مع الفجر، تاركًا في الأركان همًا يعلو همًا، حتى صارت دقات النبض والآهات نشيدًا وطنيًا يختص به.

ما من أحد دخل الممالك محررًا... الكل يبحث عن الفتح، قلبي الذي لا تعرفه الناس ساءته أحزاني، قال: سأعيش أيامي كما أريد، في كل الفصول، الصيف، الخريف، الشتاء، الربيع، والصيف والـ... سألعب كل الأدوار التي أجيد ولا أجيد، سأكون الملك على رقعة الشطرنج...

إشارة مرور ضوئية بنهار شمس... تمثال في ساحة تنتظر منصتها الفارغة البديل.. سأكون...
قاطعته: كن كل شيء في كل الأزمنة والأمكنة.. كن أي شيء... إلا أن تصبح قلبًا لي... الأوردة ملّت منك وملّت الشرايين.. الأحشاء والأطراف على وشك الرحيل..! فعلى شغافك تكسرت راياتي، وكلما حاولت حفر خندق حولك يحميك.. كسرت معولي..!

من أين يجيء الصوت أكثر إصرارًا، دعيني هذه المرة أعيد أسطورة ميدوزا، وأحيل الهمرات التي ترمقني إلى حجارة... حتى إذا جاء الشتاء حولها طينًا، وحين يأتي الصيف، تجف... وتحولها الأحذية إلى تراب... تراب.. .تهب رياح الخريف عليه، فيتناثر كأنه لم يكن.

- تكملة لم تكن خارج سياق النص

اكتظت سمائي بالصور، واختلطت بالأصابع والأكف، الكل يصفع وهو كالصخرة الصماء، لا أدري من أين تأتيه هذه الأفكار، لماذا ينبض كالمعتوه، مسرور لأنه محاط بالأحذية...
كلما سألته عنها ظن نفسه مزارًا مقدسًا.. الكل يترك حذاءه خارجًا قبل الدخول إليه، ياه... أحسه كالفضاء الخارجي، كلاهما كان نقيًا قبل وصول البشر إليه...

يا لها من مشكلة...

قال: من يشاهدني عليه أن يروي. ومن يسمع عليه أن لا يسكت، ويل لهم أولئك الساكتون إن مروا أمامي حين ألعب دور اللسان في فم الدنيا ...

كم هو حالم هذا القلب المقسم، بت أفكر في نقله من صدري إلى أية غيمة كي لا يصله أحد... بعيدًا سيغدو كالقمر فيما سيبدو الآخرون مجرد فزاعات.

يا ترى كم قلب يحلم مثل قلبي ويدرك أن الأحلام جبال ترقد فوق القلوب إن لم نروها ستدخل قاماتنا في رمال متحركة.. أنا وقلبي امتهنا الحلم كي نحول الهمرات إلى حجارة.

• • •

امرأة تحت الاحتلال

شيء من بين جفوني كان ينساب ببطء، يلسعني كلما شخص بصري على ذلك الرسم، ألم يعتصر الروح..
أحيانًا أنساه، أو أتناساه، لكنه يبقى يتأرجح بين الأيمن والأيسر من القلب ويلوب بين الأضلاع، كانت ملامحه مرسومة بقسوة الصحراء.. ثاقب العينين، أصابعه طويلة، ثرثارة.. تحدثني كثيرًا عن رحلات مجهولة، كان في كل مرة يعود حاملاً أوراق الرسم ناسخًا فيها كل ما يصادفه، حتى الظلام.. يغيب أيامًا لكنه كان يعود مع الشمس.

أيام طويلة مرت من دون أن نعبر الجسر معًا من الكرخ إلى الرصافة. الجسور الآن محتلة، ترزخ تحت وطأة القنابل وأثقال الدبابات والأحذية الغريبة أيام طويلة بلياليها ونهاراتها حلمت بأصابعك الأنيقة.. كم أتمنى ملامستها الآن.

ذات مرة قلت لك أبحث عن قامة بطول الجسر، وصدر بوسع النهر.. ما زلت أذكر نظراتك الغامضة... هل ترى الآن صبر الجسور وسعة الأنهار؟ وقسوة أولئك المحتلين؟

كم أتمنى الآن أن تهديني رسمًا.. لا أدري إن كنا سنعبر نفس النهر ثانية.. أذكر ردك المربك: لا ... فالنهر يغير في كل لحظة أمواجًا جديدة ويودع أخرى.

رسمك في هذه اللحظة أمامي كلما أنظر إليه أجد آلامي وتعب السنين التي مرت بعيدًا عنك يتجدد، معك وحدك ألمس أحلامي، وبقربك أعجبتني الأشياء التي أعرفها ولا أعرفها: النهر .. الجسر، الشمس، أضواء الشوارع، منتصف الليل، أول خيوط الفجر، لوعة الحرمان، وشغف اللقاء... حتى في الحلم، لحظة قبلتك لم أعرف نفسي.

أدركت أني أحبك، أحن إليك، إن غبت عني أشعر بالغربة عن روحي.. وإذ تلمع عيناك في عيني، تنعق صفارات الإنذار ويشتد القصف وتسقط السقوف فوق الرؤوس، فكل شيء جائز في وقت لم يعد فيه وقت إلا للاحتلال.

• • •

الغُزاة

(١)

ما زلت هنا، دائبة على الحركة، شتاء هذا العام رحل مبكرًا، تاركًا لنا بردًا قاسيًا وعواطف مرتبكة من كل شيء...
رسمك المقيم هنا بين ضلعي القلب وحده من يدفعني إلى الحركة، اسمك أردده لنفسي وأخاف أن يسمعه الآخرون، ماذا فعلت بي.. تعال نغربل الشتاء من جديد.. لنر ما الذي يتساقط منه.. وما الذي يبقى..
لكن، لحظة ما الذي سنغربله، الانتظارات من الأيام، أم الهمرات من الشوارع ؟...

(٢)

لملم الشتاء سريعًا أطراف ثوبه الرصاصي وقرر الرحيل قبل أوانه، حتى أن آذار الذي كانت جدتي تقول عنه (أبو الهزاهز والأمطار) تغير ومنح هزاهزه لرأسي..
كل شيء تغير.. أشياء كثيرة كانت ثابتة؛ أو ربما هكذا تصورتها تحركت هذا الشتاء: الموتى، الرجال، أعمدة الكهرباء، المزارع، نبض قلبي، أسرة النوم، الخواتم و....

(٣)

على خشب المائدة الفاصلة بيننا عزفتْ أصابعه إيقاعًا متناغمًا، خيل لي للوهلة الأولى، أن الصوت قادم من جهاز تسجيل.. في حين كانت أصابعي تستقر على المائدة نفسها بانتظار أن تعزف أصابعه نغمًا آخر عليها.

أصوات المجنزرات شقت هدوء المكان وسرقت منا ذلك الحلم الجميل الذي بدأناه للتو...
وحين ملأتنا الزناجير، توقفت أصابعه عن العزف، وانقطع أملي بالمعزوفة الثانية.

(٤)

نحن إن أفرغنا الشراب من الأقداح فإننا سنملأ القنينة بالفراغ، وعندما نشرب الأقداح، فإننا نملأها بالفراغ أيضًا..
الفراغ .. الفراغ .. يحيط بنا دائمًا وبه نملأ كل الأشياء من حولنا متى شئنا.. مزعج هذا الفراغ إن ملأ البشر..
يا ترى، بماذا نملأ أنفسنا لنتخلص منه.

(٥)

تعودت السكون بين قلب وعين، وعرفت دروب الحنان
- علموني منذ جئت لهذا الكون أن أسكن عند خط القلب -
وفجأة وجدتني خارج الخطوط جميعًا.. وحولي أسلاك شائكة
ودروب ملؤها المجنزرات والدروع..
لم يكن الغزاة في الشوارع .. لكنهم في قلبي.

• • •

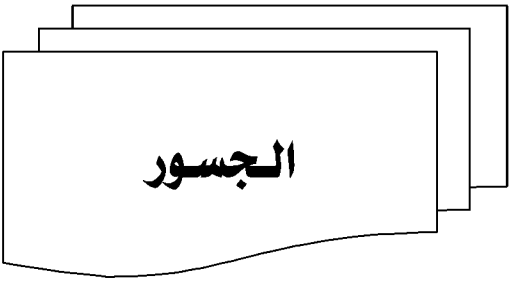

كم جسر عبرنا ... وكم جسر علينا أن نعبر

كي نصل إلى ما نريد

جسر يحترف الجنون

أخيرًا انتفض الجسر الحديدي، وسار نحو باقي الجسور تاركًا العالم خلفه يتخبط بين ضفتين، دهور مضت تدوسه الأقدام دون أن يحاول أحد الانتباه إلى نشيج روحه المتقطع، أن يسمع شكواه. حشود تتقاطع أقدامها يوميًا في عبور الضفتين، لم تكلف نفسها الاستئذان منه، ربما أنا وحدي كلما هممت بالانتقال من ضفة إلى أخرى اجتاحني ذلك الإحساس!

ما فرق قدمي عن أقدام باقي العابرين.. فوقي... حتى دون أن أقصد كانت أقدامي تطأ الإسفلت بهدوء كمن يدوس على زجاج، ألأني أشترك مع الجسور بصفات عدة، منها أننا وسائل مفضلة لعبور الآخرين فوقنا، وأيضًا بصفة أخرى لا يشابهنا فيها أحد.. هي فن الصمت الذي أجدناه معًا، ومعًا لا تفكر بنا الأقدام، أنعشقها أم لا ؟ وكلانا يربط ضفتين غرقت فيها مراكب ومراكب..

هذه الليلة ومن دون اتفاق كلانا قرر أن ينتفض.

القمر استدار وأقمار أخر في الطريق استدارت.. لكن القمر دخل في خسوف كامل.. آه.. ذلك المكتمل ربما فعلها تضامنًا معنا.. أنا والجسر، ومن يدري ربما شمس الغد لن تشرق هي الأخرى.

وحده.. النهر؛ واظب على سيره وكأن الأمر لا يعنيه على الإطلاق.

هجرة الجسر الحديدي أسعدت النوارس فقد وجدت في الدعائم عرشًا لها دون أن تعير سيري اهتمامًا..
أصبحت المسافة بين الجسر الحديدي والجسر المقيم في الجنوب منه قريبة، ما الذي سيحدث يا ترى عندما يجد العابرون جسرين قريبين من بعضهما، هل يظنون أن العشق هو الذي قرب المسافات ؟؟
ماذا يريد هذا الجسر الحديدي بهجرته.. جسر لو لم يعشق السائرين فوقه لماذا قبل أن يكون جسرًا...
ماذا أريد أنا.. لو لم أعشق أولئك العابرين على أضلاعي لما قبلت أن أكون جسرًا لهم أيضًا.

عند آخر نقطة التقاء بدا الجسر متعبًا، أرهقه المسير الذي لم يعتد عليه، فيما بدوت أنا خفيفة ونفسي أكثر راحة عند نقطة اللاشيء..
قد يغرق من يحاول العبور على الجسر الآن، كل الوجوه التي تحيط بي لم أرها من قبل تمامًا مثل الأقدام التي تعبر الجسر..
إنها النهاية والبداية معًا. منتهى قلقي أن تعيد الوجوه الجديدة سيرة الأقدام القديمة بالعبور فوقي!! هل أستطيع أن أعيد تكوين روحي؟ أن أعبر فوق الجميع ؟!!

والجسر ذلك المرهق، العجوز، القديم.. ما الذي سيفعله؟ أطرافه تبدو أكثر قوة، لأن هنالك أرضًا تسندها، لكن لو غيرت موقعها مع أواسط الجسر هل ستبقى قوية؟ وكم ستحتمل ممن سيعبرون؟ هل تقدر على مغادرة البر الذي أدمنته؟ هل تحسد فضاءات الجسر أطرافه وتظنها أكثر سعادة؟ هل دعائم الجسر أكثر فرحًا لأنها مازالت تعانق الماء لا يهمها إن كان ما تحمله نوارس أم حديد مغطى بالإسفلت.

الآن القمر عاد إلى كبد السماء بضياء انتصاره يحتفل على الخسوف.. تاركًا للنهر أن يعكس صورته على أمواج هادئة، أما جسري المجنون... تكاد تأكله الحيرة هل يعود ..أم لا؟!

كنت حينها قررت اللا عودة مهما كان قرار الجسر فقد كنت بلا دعائم معي منذ البداية .

• • •

هذيان جسر مهدد بالسقوط

الجسر معك لـه شكل آخر، الأرض، السماء، الكون، كل الكون تسامى من حالة إلى أخرى، نهر بحجم دجلة صبته السماء علينا تلك الليلة، لا أدري كم مشينا، لكني أدري أنه طريق طويل، عندما أكون برفقتك أشعر أني على متن شبح رهن مشيئتي.. أقول يمينا فيطيع.. أشير إلى اليسار فيستجيب بلا تردد.. كل ما في الأرض يأتمر بأمري، السماء عند أطراف أصابعي وأنا طفلة مدللة بين كفيك أقفز، أضحك، أغني، أغفو، ليس نعاسًا وإنما غنجًا لأحلم بك...

وحدي... الليلة، كالمحمومة أواجه مرآتي وأهذي، اشتقت إليك، الليل معك أكثر دفئا، المطر يغازل وجوهنا، وهذا الجسر الذي عبر عليه كل موتى الأرض وإحيائها يستجدي الليلة خطواتنا ثانية.

كم جسرًا علينا أن نعبر حتى يفضي الطريق إلى حيث نريد، وكم نفقًا منيرًا ومظلمًا.. وكم.. وكم... وكم مرة سنعلن حبنا سلاحًا في وجه الجسور التي قد يدمرها الغزاة ؟ (لماذا تسقط الجسور تحت القصف.. ألا تشدها خطواتنا، ألا تجعل أضلاعها أقوى من قنابلهم ؟).

أشعر أن الأرض كل الأرض لا معنى لها من دون جسورنا، ماذا عساك تفعل هذه الساعة.. أخمن / هجرك النوم، وبطانيتك تأبى أن تمنحك الدفء، تهذي بأشياء لا يفهمها أحد في الكون سواي، نتوحد معًا في هدوء هذه الليلة بفهمنا للهذيان ننزف حبًا حتى يغادر النبض الشرايين.. وتكف الصواريخ عن الجسور وعن محاربة قوس قزح.. يكف كل شيء عن كل شيء، ومن ثم ترتبك أسلاك الهاتف المتجمدة في برد الغرفة التي لا تدفؤها سوى أنفاسك، يرتبك الوقت يرن الهاتف أو يرن القلب، صوت المؤذن يكبر، النائمون استيقظوا، ودعوا أحلامهم أو أجلوها إلى الليلة القادمة، والآخرون تركوها في الفراش مع أشياء أخرى..

كل شيء تحرك.. عفوًا، توقف.. أو لا أدري.. وأنا ما زلت أهذي شوقا، أو ألمًا.. أو حبًا... بانتظار من يأتي ليكمل معي الهذيان علنا نتغلب على هذيان قنابل الـ B52 .

• • •

كتابة من نوع خاص

تأريخنا ستكتبه الجسور، وإسفلت الشوارع، وربما كعوب أحذيتنا.. هؤلاء هم الشهود الذين سيقفون يومًا أمام العالم يتحدثون في القنوات الفضائية تارةً، وفي الصحف والمجلات تارةً أخرى؛ عن أغرب اثنين في الكون.. عذرًا؛ عن واحد.. روح واحدة، هكذا اتفقنا في لقائنا الأخير.

حلمتُ بك كثيرًا.. حدثتني عنك الجسور، كانت تعرفك، تعرف بريق عينيك اللامتناهي مثلما يعرفك النهر، لماذا ينتهي النهر سريعًا عندما نعبره معًا، إلا يشعر بشوقنا إذا ما تباعدنا حين ينتهي، لم لا يتسع أكثر يطول أكثر لتطول الجسور وتطول كي تصل اللانهاية.. ونبقى معًا نمشي حتى تشرق الشمس..
لا أروع من مشهد النهر تحت الجسر أول الليل بجانبك.. كنت في كل مرة أعبر فيها النهر معه أقرر أنها الأخيرة، وعندما أصل وسادتي يبدأ الحنين إلى الجسر ثانية.

شيئًا فشيئًا صار يحدثني عن الجسور ويعبر معي النهر كل يوم من جسر إلى جسر حتى لا نترك جسرًا يحزن لأنه لم يرنا معا ولم يعانق خطواتنا.

غريبة علاقتنا بالجسور، كغربتنا في هذا الكون، لا أدري أي منا ينازع زمن السخط أكثر؟ نحن، الجسر،النهر، أم الأحذية التي ابتليت بنا ؟!! والتي ربما لو أتيحت لها الفرصة وتكلمت لقدمت شكوى إلى الأمم المتحدة أو مجلس الأمن، تتهمنا بالإسراف في المشي بها، ومن يدري ربما يصدر قرار دولي بتفريقها عنا. حينها سنمشي حفاة، الناس سيصفوننا بالمجانين إن كان خيارنا المشي من دونها ستكون علاقتنا بالأرض أقوى، ما أحلى أن نلامس الجسور بلا أحذية تفصلنا.. لكن ماذا إذا اشتكت الجسور هي الأخرى.. هل نكف عن العبور... أم.. سنكون حينها أقرب من النهر نستمد منه كل شيء.. أما إذا استكثر علينا النهر اللقاء.. هنا سيكون عليه الرحيل هو ...

مسكينة أشياؤنا.. تبدو عديمة الجدوى في ليالي الشتاء الرطبة الباردة عندما نبتعد عنها.. تبدو الجسور كخطوط عنكبوت واهية والنهر ملاح حزين، وحيد، هرم قاربه قبل أن يصل إلى الشاطئ الذي يريد... وكعوب أحذيتنا لا قيمة لها بعيدًا عن أقدامنا.

• • •

الخيول تهجر المضمار

كلٌّ في مضماره؛ اصطفت الخيول بمنتهى الهدوء، لحظات ويبدأ السباق، نزال لا تفقه منه شيئًا، حيث المدرجات المرتفعة التي اكتظت بالبشر، صراخ وهتاف يتعالى، مناظير لتقريب المشهد، مظلات تقي الرؤوس حدة الشمس، عشر جياد تنافس بعضها، لكل منها اسم ورقم ولقب عائلة وتاريخ طويل، المعلق يتلو سلالتها عبر مكبِّر الصوت، الآذان تحاول أن تتذكر اسم الجد الرابع من دون جدوى، فما الذي يهم، كل منهم دفع مبلغًا ليدخل المدرج، بعضهم دفع ضعفًا لأجل الرهان على فرس يظنها رابحة، مئات الأمتار ستقطعها الخيول من دون أن تدري لماذا؟ من يفوز منها يطعم مثل الخاسر، والكل سينام في الإسطبل نفسه من دون وسائد ملكية.

المهووسون في المدرجات يتبادلون بطاقات الرهان، محتسين الخمر الرخيصة من قناني مهربة، مثرثرين عن الحظ، وعثرات الخيل غير المتوقعة.

ابتدأ السباق، العيون تراقب الخيول، والخيول ترقب المضمار، أراقب الاثنين معًا من بعيد، أيهما أجدر بالفوز.

على وقع الحوافز اهتز المكان وعلا الضجيج، هذه تقدمت وتأخر ذاك، لحظات وتتبادل الجياد المواقع، مثلما يتبادل المراهنون، تتوتر الأعصاب، تشخص الأبصار، تبتعد العيون عن المضمار، كلما ابتعدت الخيول...

لم يعد أحد يرى أي فرس، تتحرك الأنظار، تبحث حولها، تتسمر الوجوه في الوجوه، تتساءل الرؤوس، ويغيب البعض عن الوعي.

هل هو حلم في غفوة ؟

كان وقع أقدام الخيول يغيب عن المضمار والغبار المتطاير خلفها هو الشاهد على حدث كان هنا، من هنا مرت..

انتهى السباق، ما من خيول رابحة، ما من خيول خاسرة ما من مضمار أو فرسان، أو ساعات توقيت، المناظير المرتفعة بقيت مرتفعة.. المدرجات تغلي.. وسؤال على الشفاه: أين الخيول ؟

• • •

أحلك الليالي .. تلك التي لم تأتِ بعد

قدح ومطر.. آخر الليل

كانت حبات المطر تعزف لحنًا قاسيًا على زجاج نافذتي.. لحنًا يذكرني بنقر أصابعك على الباب عند عودتك كل ليلة وأنا نائمة من التعب... على العكس منك تمامًا، لا أدري من أين كنت تأتي بكل تلك القدرة على تحمل ساعات العمل دون إحساس بالإعياء.

اشتد المطر في الخارج وارتفع صفير الرياح مع الرعد حتى انقطع التيار الكهربائي، بدا كل ما في الغرفة هلاميًا، كأن لا وجود له، كل الأشياء الثمينة تفقد قيمتها في الظلام، همست بها في أذنك ذات مرة، فأنبتني كثيرًا، لا أدري ما الذي يشدك إلى العتمة دائمًا، كلما عرض التلفاز فيلمًا للسهرة، تضايقت وأوصدت بعدها الأبواب والنوافذ مثلما فعلت أنا الليلة، تطفئ الأنوار كلها قبل أن تتوسد ذراعي وتحرمني النوم حتى الفجر.

في العتمة، تبدين سرًا عصيًا، دائمًا كنت ترددها حتى اقتنعت بها أو أقنعتني رغمًا عني، لا أذكر أن للمطر صوتًا عندما نكون معًا، لم أسمع صوته في كل الشتاءات العشر التي قضيتها على صدرك، ربما كان نبض أوردتك أو صوت أنفاسك أعلى!.

برق ضوء قوي في الخارج، كانت صاعقة نفذ شيء منها عبر النافذة وانعكس على قدح كان يقبع على الطاولة، نصفه مليء بعصير الليمون، تلألأ الضوء فيه.. كأنما حبات لؤلؤ في القعر، مازلت أذكر نصيحتك: "لا تتركي الأقداح فارغة كي لا تغضبي الأشباح".. من يومها وأنا أملأ القدح كل ليلة بنوع من العصير أشربه حتى المنتصف، وأترك الباقي للأشباح التي لم تأتِ بعد..

عاد المطر يعزف لحنه على زجاج نافذتي، تركت سريري وترجلت صوبها أزحت الستائر، كان الظلام قد غزا المكان، أضواء الشوارع انطفأت، والسيارات هجرت الطريق العام أو اختبأت خوفًا من الأشباح والرعد.

في قريتي، كانوا يبتهجون بالمطر ويصلون من أجله إذا غاب عنهم، فهو عندهم قرين الخير دائمًا، خلاف أهل مدينتك هذه، يختبأون منه ويفزعون كأنه ماء النار الذي سيذيب أجسادهم إذا لامسها. أمن شدة تعلقي بك صرت مثلهم، أخشى المطر أو هكذا يخيل لي هذه اللحظة ؟!

كم أشتاق إليك.. أفتقدك.. لماذا تتركني وحدي أتحدى المطر مع قدح نصف مملوء ينتظر الأشباح التي أشعر أنها ستأتي هذه الليلة.

هدأ صوت الرياح، وبدا لوهلة كأنه أنين متقطع يطلب الغوث.. انقطع نشيج السماء وعاد التيار الكهربائي يرذرذ النور في

الأرجاء، التفت إلى القدح، لم تعد اللآلي في قعره، مددت يدي صوب مقبض النافذة فهب نسيم رائق من نسائم آخر الشتاء وأول الربيع، تحركت الستائر وسقط القدح من المائدة ناثرًا شظاياه في أرجاء الغرفة.

المطر توقف ولم يعد معي نصف قدح مليء ولا نصف قدح فارغ، بل لم يعد معي أي قدح أصلاً.

قرع قاس يحاول خلع الباب، الوقت تجاوز منتصف الليل منذ وقت بعيد، إنها الأشباح الغاضبة... قلتها لنفسي وسارعت بإطفاء الأنوار ليمضغني الخوف في الفراش، ما عسى أن تفعل امرأة وحيدة في مواجهة أشباح غاضبة آخر الليل؟!

تصاعدت حدة النقر حتى انفتح الباب تحت ضغطها.. برهة.. وصوته الدافئ يداعب سمعي .. لماذا تركتِ النوافذ مفتوحة.. ألا تخشين البرد والأشباح؟!!

• • •

فنجان .. وحلم مشترك

ما أروع فنجان القهوة في الليل أمام موقد يبث الدفء في مكان يصارع البرد منذ مجيء البرد، كانت ليلة شتائية بكل تفاصيلها، ليلة اللقاء الأخير، بلا تخطيط مسبق، وامرأة تحدث امرأة.
استدارت صوبي وخاطبتي باهتمام: هل أغفر له إن عاد؟
لم أجب على تساؤلها، وواصلت التحديق في السنة النار المتصاعدة من الموقد مصطنعة شرود الذهن.

اشتد المطر في الخارج وارتفع صوت الرعد مزمجرًا، عاودت سؤالها: أين عساه أن يكون الآن؟ ألا يوقظ صوت الرعد ما في الذاكرة..
وقبل أن تنهي كلامها نهضت إلى النافذة، فتحتها فتدفقت الرياح العابثة إلى أرجاء الغرفة، وتطايرت خصلات شعرها الكثيف، بدأت حبات المطر تلتصق بوجهها الباحث عن جواب، تسمرت في مكاني، كان منظرها من الخلف يذكرني بحديث أمي عن الحلم.. الحلم الحزين... كانت تقول عنه إنه نوع من الترف يقضي فيه الحالمون أوقاتهم التي لا قيمة لها في الصحو.

حزينة على المرأة التي أمامي مرة وعلى نفسي مرات.

استدارت إلي فجاءت الرياح بشعرها وثيابها إلى الأمام، بدت وكأنها مخلوق فضائي هده تعب الطريق إلى الأرض، اقتربت مني، مسحت حبات المطر وقد تشابكت خصلات شعرها، تناولت فنجانًا ورشفت منه، قالت: لم لا نمارس الترف بأرخص أنواعه؟ لنحلم ما دام في الأحلام راحة، لأحلم أنه عاد..

صارعت نفسي لحظات لأكتم الأمر وأنصت إليها عسى أن أتعلم الدرس وأتقن التعامل مع إحساس كإحساسها، لم أكن راغبة بقتل أحلامها.. تحبه وتنتظر عودته بين أضلاعها، ولأنه معي ولأنه لا ينظر إلى الوراء، كنت الوحيدة التي تعرف.. أعلم أنه لن يعود، لكنه معنا الآن فهل نبقى أنا وهي اثنتان تحبان رجلاً واحدًا ؟ سفينته لا تستكين في مرفأ ؟ وهي لم تمزق أشرعته، لكني فعلت.

هي تبكي لفقده وأنا أبكي عليها وهو يبكي على من ؟

بقيت أحلم ببقائه، مثلما تحلم هي بعودته وما بين حلمي وحلمها، ثلاثة قلوب تنبض في ليلة ماطرة مع فنجان قهوة احتساه البرد قبل أن يحتسب أحد.

• • •

انقلاب

كفكفت دموعها ثم ارتشفت كوب الماء الذي أمامها واستنشقت الهواء كالغريق..

قالت: للمرة الأولى أحاول أن أنام دون أن أحلم به ؟!

كانت منهارة الأعصاب.. متعبة، ولم أكن أجد كلامًا يواسيها أو على الأقل يخفف حزنها.

قلت : من أين كان يتسلل إليك ؟

- ارتشفت الماء مجددًا وحين أعادت الكوب، أشارت إلى رأسها، من هنا كان يخرج.. يعانق روحي ويغازل ريش وسادتي كل يوم.

- أدركت أن الأمر أكبر من استدراكه بالكلمات، وضعت شريطًا لـ"موزارت" وما إن بدأت الموسيقى تنبعث حتى رفعت عينيها لتواجه جدران الغرفة...

كمن تحدث نفسها (لقد تسللت عيناه إلي بنعومة أفعى وما إن أدمنته حتى لدغني) !!

- شعرت حينها أن اشد ما يؤلم هذه المرأة الكسيرة هو إحساسها بالهزيمة. قلت: الرجال صناديق مقفلة وتخطئ المرأة حين تظن أنها المفتاح.

ـ مسحتْ دموعها التي لم تعد تتوقف ونظرت إلي باستغراب قائلة: كل مفاتيحه كانت بين يدي؛ أو هكذا اعتقدت، لكن كيف دارت الأرض أربعًا وعشرين مرة في ساعة واحدة لتفلت من يدي الأقفال والمفاتيح؟!!

ـ لحظتها، كل شيء فيها قد تغير..لون وجهها، نبرة صوتها، نبض عروقها، حجم عينيها. كل شيء تمامًا.

قلت: للناس أطوار يجدون اللذة في إتعاب الآخرين والاستخفاف بهم.

لم تحركها كلماتي ولم تهز فيها عرقًا واحدًا، وبدا الحال كأنني أحدث نفسي..

أردفت: الأحلام حكر على الأغنياء بل إنها نوع من الترف علينا الابتعاد عنه !!!

تحركتْ صوب جهاز التسجيل، أخرجتْ الشريط ورمت به إلى سلة المهملات.. كانت المكتبة حينها قد أصبحت بمواجهة عينيها.

قالت: ما نفع مئات الأشرطة التي سمعناها وآلاف الكتب التي قرأناها إن لم نكن قادرين على فك صندوق مقفل؟

اخترت الصمت أمام صافرة الإنذار التي دوت في رأس صديقتي معلنة حربًا ضروسًا تدور رحاها بين العقل والقلب، أسلحتها أخطر من أسلحة الدمار الشامل ونتائجها أسوأ من وصفها

بالكلمات.. مساع كثيرة ستبذل لاستدراك الحال.. لغة كاملة قد تولد من ذاك الصمت وتختبئ من نار الحرب بين ضربات قلب كسير...

لكنها حتمًا ستضمحل ما إن يعلن رجل الانقلاب عليها.

• • •

حديث القلوب

في تلك الليلة.. كان ثمة مطر غاضب، ينزل على الأرض بلا رحمة، المشي تحته كان حلمًا، والصحبة، تخريفًا من نزق رأسي المخبول، قالتها أمامه شاكية.

ابتسم واتسعت عيناه لتحتوي السماء. وأية سماء هذه التي تتسع لها نظرة، حينما رأته، وضعت حقيبتها جانبًا ودارت حول نفسها مرتين كعارضة أزياء. تستعرض فستانها الجديد.

قال : المطر وخطواتنا وهذا الطريق المهيب كلها رأيتها قبل أن أراكِ، ليس علي أبدًا أن أقسم، فأنا أعيش الأحداث مرتين؛ الأولى في سماوات رأسي، والثانية على الأرض، يومها قررت اللا عودة وحزمت حقائبي وحجزت تذكرة السفر، كان ذلك قبل أن تتشابك أيدينا لتوقظني من سبات عميق.

قالت : بعث الدفء من جديد في برد ذكرياتي القديمة وأوقظ لهيبًا في الروح والجسد بعيدًا عن توقيتات وحسابات التقاويم وتخريف الحلم المتحفز للزرع في الأرض الجديدة.

قبل تلك اللحظة لم يكن بينهما حديث، لكنه جاهد ليصل إليها مثلما تخلت عن كبريائها لتبدأ الكلام. تلك الحياة صعبة. كالمقامرة تقبل الاحتمالات جميعها وكلما تعلمنا شيئًا ندرك أننا ما زلنا لا نعلم أشياءً كثيرة.

السماء أرسلت رذاذًا ونسيمًا رائقًا محملاً بعطر الأرض وبقي الذاهبون والآتون يتأملونها. يتأملونه. ما كانا قنابل موقوتة لكنها قالت له إن زلزالاً سيهز الأرض إن تلامست أيدينا ربما سينفجر مقياس رختر أو تلغى الأرقام في حسابات المصارف.
وعندما اتحدا بقيت الأرقام ثابتة ومقياس رختر لم يتحرك، وإن كان زلزالاً كاد يقتلع أضلاعها ليعلن لحمورابي أن شريعته ما زالت سارية المفعول.

• • •

وعـاء حكـايات

كان كلما سألتُه: "متى نلتقي لقاء ليس بعده وداع".. ضمني إلى صدره.. حتى لأشعر أن لي جناحين وقد طرت بهما إلى قمة جبل عال.. لكن ما إن أبتعد عنه.. حتى تجتاحني الغربة، وأدرك أن الأرض مجرد خطوط منبسطة.. وسكانها فصائل إخطبوطات تمتد أذرعها إلى المجهول بحثًا عن امرأة بعينها.. هي أنا.

قالتها بألم وهي جالسة قبالتي في (الشرفة) المطلة على الشارع، كنت أنصت لها باهتمام امرأة تنصت لامرأة.

ثلاثة أعوام قضيناها هكذا، كل يوم أعد فنجان قهوة لي، ولها كوب شاي بالحليب، لم تكن علاقتها طيبة بالقهوة.

أشفق عليها أحيانًا.. وعلى نفسي أكثر الأحيان، فأنا مجرد وعاء حكايات، بينما هي الصنبور الذي يتدفق في الحديث عن رجل تسميه حبيبها.

عامان فقط هما الفاصل الزمني بين عمري وعمرها.. لكني غالبًا ما أشعر أن قرونًا من الزمن تفصلنا عن بعض، كانت تقول: ليتني أنسى شيئًا اسمه كبرياء المرأة وأعود إلى ذلك الرجل الجارح.

في هذه اللحظات أستعيد في رأسي ذكرى كلماتها، ثلاثة أعوام لم تنس فيها ولو يومًا واحدًا من أيامها معه، لم تنس يوم ميلاده أو لون ربطة عنقه أو ثيابه في لقائها الأول ولا حتى أغانيه المفضلة، غبية كانت تحفظ ما يحب وتغني له، ثم...

تزوجت من رجل آخر يشبهه إلى حد ما، وسافرت معه إلى أقصى شمال الكون.

قبل أيام كتبت لي تقول : كنت أظن أن العالم، كل العالم يكمن في أسرار تلك (الشرفة)، أما الآن فانا نادمة على ما أضعت من وقت هناك.

أرسلت لها رسائل أتوسلها وأشكو لها، قلت إن عيني تبحثان في وجوه الذاهبين والآتين عمن يشفق ويقبل الإصغاء إلى امرأة أجادت ذلك الفن لأعوام. فكتبت لي ....

قرأت سطور رسالتها المقتضبة عشرات المرات.. لعلي أجد ما ينسيني كبرياء امرأة تلاشى مع تلاشي أخر خيوط الليل.

يوم آخر يأتي، وصباح جديد يبدأ، قررت أن أرفض أن يكون لي جناحان، ولن أقبل بالطيران إلى قمة جبل عال.. ولا أريد الرحيل إلى أقصى شمال الكون مع رجل يشبه في شكله من أحب، لأني أدركت منذ كانت صديقتي معي عند الشرفة القديمة.. أن الأرض مجرد خطوط منبسطة وسكانها فصائل إخطبوطات.

• • •

وفاء الضحية للجلاد

مثلما تنظر الضحية للجلاد، نظرتْ إلى صورتها في المرآة.. ما زال الجسد يحمل آثار زمنٍ قاس.. تذكرني بحكمة تقول.. الضربة التي لا تميت تمنح القوة.. ما لديها من القوة الآن يفوق قنبلة ذرية، حصيلة ضربات كم تمنت لو أنها قتلتها. !!!

شعر كثيف كلما استاءت من حالة ما بترته بحجة التغيير لتكتشف بعد أيام أنها لو تركته كان أفضل، ملامحها حادة تنبض بالموت، متفائلة أحيانًا، متشائمة في الغالب، يومًا ما ستنفجر القنبلة الذرية، متأكدة أنا من ذلك، جروحها تبدو ملتئمة لكنها تحمل بين ثناياها ألمًا غير منسي، من ينتزع الأوراق من غصن شجرة لا يقدر على إعادتها... قالتها بحزن عميق، حزن طالما أرّق لياليَّ..

لم نكن اثنين في حساباتنا، لم أكن صديقتها أول الأمر، لم أستسغ تصرفاتها، دائمًا على طرفي نقيض.. فجأة أصبحنا معًا، ندرس الاختصاص نفسه، نجلس بجانب بعضنا، نعمل في مؤسسة واحدة، طعامنا واحد، ملابسنا واحدة.. ما يميزني عنها -حسب رأيها- هو الحزم في اتخاذ القرارات لذلك وجدتها تستشيرني في قضاياها وغالبًا ما تخالفني.

نحن الاثنين كنا نتخبط في موج الأيام.. شيئًا فشيئًا أجدت العوم، ورفضتْ هي التعلم، فدائمًا تخرج على أذرع الآخرين. المهم أن أخرج.. قالتها بابتسامة مفتعلة. لا يهم بعض الخدوش فلكل ثمن.

تدور الأيام والسنون وكلانا راضيتان بما نحن فيه ولو على مضض، لوحتها السياط مثلما تلوح الشمس رمل الصحراء.. أسمع شكواها الصامتة، أما نصائحي فلها مهب الريح لأنها أتقنت دور الضحية.. خاصة عندما تتخبط في الموج دون رغبة منها.

ويومًا بعد يوم، لم يعد هناك من يخرجها !!! كل ما بقي في حياتها جلاد.. يتقن دوره هو الآخر..

ما يحزنني حقًا هو ما الذي سيفعله الجلاد إن لم يجد أمامه ضحية.؟!

• • •

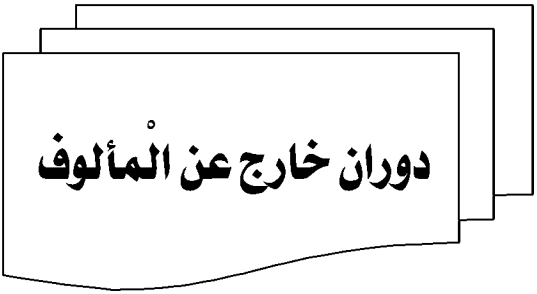

ليست الأرض وحدها من تدور بنا..

رؤوسنا أيضًا... تدور...

ديكتاتورية لُغة

لا محل لها من الإعراب، وحدها من بين كل الضمائر الظاهرة والمستترة، ليس لها سوى الهم والحسرة.. الذي يحاول أن يعطيها قيمة، لا بد أنه جاهل، غير عارف بشؤون اللغة، هكذا هي القواعد، ثابتة، لا تقبل التغير كثبات الجبال، خط الاستواء الوهمي، أيامنا... محاولاتها لاحتلال موقعًا بين الضمائر المتصلة أو المنفصلة، لا قيمة لها. كل يوم؛ تأخذ نقطتيها لتجوب الشوارع حاملة لافتة تطالب فيه بالاعتراف، تكويها الشمس فصولاً، تمحها مياه الأمطار فصولاً أخرى.. وتعود لا شيء معها سوى نقطتين حظهن العاثر قادهن إلى تاء لا قيمة لها في النحو. ماذا لو قررت النقطتان هجرها ؟

حتمًا ستتحول إلى شيء مبهم لا معنى له..

لماذا استكثر عليها علماء اللغة موقعًا يحفظ لها كرامتها وكبريائها أمام باقي أقسام الكلام. مضاف إليه على الأقل..

ما فرقها عن تلك التاء المغرورة، تاء الفاعل. أم أنها لا تستطيع الفعل لأنها.. لأنها.. ارتبطت بالأنثى، في وقت كان فيه كل علماء اللغة.. ذكور. هل صبوا كل حقدهم على القوارير، عن طريق تلك التاء المسكينة ؟ ألا يكفيهم كل ما يأخذونه منها، منذ بدء التاريخ حتى يومنا هذا، وهي تعطي مع أنها بلا محل من الإعراب...

جولات عديدة متكررة تخوضها مع الألم، الخوف، وحتى الموت تصارعه لتمنح باقي الضمائر الحياة، الأمل، الفرح، أو شيئًا من الغرور والتميز عن الآخرين.

هل مرَّ ببال أحد أن تقف تلك التاء المهملة على سكون مستديرة سكنت فوقها كل دهور اللغة تنظر من خلال نقطتين لا انكسار فيهما. وجهًا لوجه من دون أن تتمترس في خندق أو حجاب مع كل مفردات اللغة مع أنها تعلم أن لا محال لها في الإعراب، والفتحة كالضمة كالكسرة لا ترضى بالاقتراب منها، تقف أمام الجميع لتعلن انسحابها من دنيا اللغة...

من يتوقع حينها أن قرارها لا رجعة فيه، جاهل بلا شك بكل شؤون الـ... لغة لا يعرف شيئًا عن الـ.. ضمير المتصل .. تاء التأنيث الساكنة. وجعًا وحسرة وخيبة أمل ...

وتراجعها عن القرار ضعف لم تخلق من أجله. إلا أن ذلك لن يحدث، لأنها تعلمت منذ البدء أن اللغة ليست ملابس تتغير في النهار أو في الليل، مثلما تعلم أن نقطتيها لا تفكران بالرحيل عنها ولو غادرتها كل مفردات اللغة.. ولأن السكون أنثى.. ولأنهن إناث لن يرحلن... هكذا تعزي نفسها... إنها لا علاقة لها بالذكور حتى ولو لم يكن لها محل من الإعراب.

• • •

متاهة في الجدار

العديد من الكراسي وقطع الأثاث توزعت في أركان الغرفة، لوحة سوريالية لا أفهم من تفاصيلها شيئًا احتلت مساحة واسعة من الجدار، إلى جوارها ساعة تدور عقاربها كالمعتاد مرة وكالمعتوه مرةً أخرى، أحس أن لعقاربها عكازتين، معها بدأ شيء ما يدور في رأسي.. ركزت في اللوحة هربًا من الساعة فغامت الأشياء في عيني، بدت اللوحة أكبر، وكلما تحركت العقارب كبرت معها أكثر وأكثر حتى صارت أكبر من الجدار، وصارت الغرفة بكل ما فيها معلقة في زواياها.. الأشياء تعوم.. عقارب الساعة تدور إلى الوراء.. رأسي ترك عنقي وراح يدور في الهواء، تلتهمه اللوحة... أبحث عمن يخرج الغرفة قبل أن تلتهم هي أيضًا، يرصدني عقرب الثواني... أتراجع... لا أفكر بالهروب! أنا لم أشارك اللوحة في احتلال الغرفة! إنها مستندة إلى أسس قوية وجدران صلدة !! لكن لماذا انهزمت أمام امتداد اللوحة؟ أعرف أن الهزيمة قد تمنح امتيازات طارئة ...

من يفكر بأمر لوحة أو غرفة ؟؟؟ أنا أدور عكس عقارب الساعة لأنها تدور إلى الوراء هذه اللحظة!!!

إن التفكير يحتاج إلى مكان وزمان !!! أين الزمان الآن ؟
ميل الثواني يلهث فتنهار الدقائق واحدة تلو الأخرى كاسرًا مقاومة الساعات !!!
من كان يصدق أن هذا الهزيل الدقيق الذي لا حول ولا قوة له بإمكانه أن يغير مجرى الأحداث، ولابد من إيقافه... كيف السبيل إليه وهو في الساعة، والساعة في الجدار، والجدار في الغرفة والغرفة... في اللوحة !!!
كيف أشق طريقي وسط أكوام الأثاث المبعثرة ؟؟؟ ماذا لو دخلت اللوحة ؟ كيف أجد رأسي وجسدي لم يعد يواكب مسيرة العقارب المعكوسة ؟!! ساقاي وحدهما من يعرفان الطريق إذا ما توفرت لهما أحذية مناسبة ! أحذية بإسطرلابات...

عقرب الثواني مازال يحث السير، تنتفض أقدامي، تحاول فعل شيء... تلتهمهما اللوحة ليضيعا وسط الأشياء المكتظة... لو أنها تلتهم يدي لتمكنت هذه من ترتيب أجزائها... يداي إن وصلت هناك ستتوالد في اللوحة أجيالاً...
إطار اللوحة يشكل حدًا يفصل بين حلم اليقظة والنوم، وأنا لم اعتد على أحلام اليقظة، أيهما أقرب إلى الواقع ؟ اللوحة أم رأسي ؟ أم الساعة التي بدت محتارة بعد نزول عقاربها ؟.

اشتد الغليان في قلب اللوحة، تطافرت قطع الأثاث إلى الخارج، أطرافي السفلى، أطرافي العليا، أنا بالكامل تطافرت مع أكوام

الخردة... كل شيء سائر نحو النهاية وكأن الإعصار على وشك أن...
الساعة توقفت وإن كان الزمن خارج إطارها يتحرك، يهرول، يسرع.. يبحث في المدى عمن يعيد الحياة للوحة ممزقة.

• • •

رحيل العالم الأول

وصلت منتصف الطريق بين الباب الخارجية للمنزل ومدخل الصالة، ناداني باسمي صوت لم أكن قد سمعته من قبل.. دخلت الصالة.. واجهني صخبٌ عارمٌ كان يحدثه أناسٌ لم يسبق أن رأيتهم في بيتي.. عشرات الأشكال صالت وجالت كيفما تشاء تاركة أثارًا واضحة في أجزاء المسكن، على السلم، في المطبخ، وحتى غرفة نومي.. عند مكتبتي انتصب رجل بكتفين واسعين، من عينيه تدفق حزنٌ غريبٌ، رمقني بغضب وقد جمع دفاتري بين يديه، صحت به: دعها..

لم يأبه لي، وتمتم بصوت مسموع: لماذا لم تتركيني بحالي ؟

لم أكن أعرفه من قبل.

اتجهت إلى السلم، واجهتني فتاة أنيقة تفترش الأرض نثرت شعرها الغجري تحدث أخرى بجوار النافذة.

منزلي الذي ألفته أعوامًا، تغير، في غضون ساعات بدت المداخل مختلفة وإن كانت الجدران قد احتفظت بلوحاتها، لم أخطئ المنزل، لكنه أيضًا ليس منزلي، وهؤلاء ليسوا العائلة، يعرفون اسمي، ينادونني به، تلك السيدة أربكتني، فقد سحبتني من ياقة قميصي صوب النافذة، تشكوه لي، ماذا عساي أفعل مع

وسيم مشاكس أخذ مني كل دفاتري، لمن أشكوه أنا، وتلك النسوة في غرفة نومي، استبحن كل أشيائي الخاصة.
غزوٌ كاملٌ ألمَّ بي، لا أدري من أين جاء، وماذا يريد، لكنه غزو غير مسلح..
سمعت إحداهن تحدث الأخرى عني،(قاسية) قالت أبعدت عني صديقتي الوحيدة التي تسمعني عند النافذة.. أحاديث الأخرى كانت تعلم أنه يخونني، لم تخبرني، لكنها كتبت قصتي ليقرأها الجميع... تذكرت عندها أنني اختلقت تلك الحكايات منذ أعوام أبطالها أناس نسجهم رأسي..

كالمسطول وقفت أمام الحدث، عيناي تسمرت في وجوههم ولم أجد ما أقول.. عالم جديد.. حياة كاملة.. أمامي.. جميل جدًا أن تعيش الحياة مرتين... لكن الأسوأ أن تموت مرتين أيضًا..
كيف أرضي هؤلاء.. من أعطاني حق التحكم بهم.. هل يمكن أن يتحول الخيال إلى حقيقة وتختفي الحقيقة بين ثنايا قصص كانت مهربا لكاتبها من آلام الحياة.. هل هي حياة ثانية أم نوع من الخبل ؟..
لأجلس وراء مكتبي وأضيف إليهم بطلاً أو محتجًا آخر.. هو أنا هذه المرة!!

• • •

لحظة خارج الزمن

عندما أعلنت إشارة ضبط الوقت السادسة صباحًا؛ امتدت يدي إلى المذياع وعيناي ما زالتا مغمضتين.. تسلل إليَّ صوته وهو يقرأ درجات الحرارة المتوقعة لهذا النهار:

(ستكون درجات الحرارة لهذا اليوم الثاني عشر من تموز العظمى سبع عشرة درجة مئوية والصغرى ثلاث درجات، أما الرطوبة.. والدرجات المتوقعة.... نهار سعيد أتمناه لكم، طبتم مستمعينا الكرام)..

فتحت عيني وحاولت أن أتبين الأمر، أسرعت صوب النافذة، كان نهارًا تموزيًا لاهبًا، فمن أين جاء مذيعي المفضل بهذه الدرجات، ربما أخطأ في قراءتها فقال سبع عشر درجة بدلاً من سبع وأربعين..

انتظرت نشرة الأخبار التالية لأتأكد من الصوت ثانية، الصوت ذاته، فقد ألفته منذ أعوام، كان واحدًا من أفضل الزملاء الذين عملت معهم لمدة أربع سنوات..

تركت المذياع وأسرعت إلى الهاتف، وطلبت الرقم، ظل الهاتف يرن ويرن في قسم المذيعين دون أن يجيب أحد، فقد أعتاد تركه يرن حتى الملل..

أعدت سماعة الهاتف مكانها وأطرقت لحظة تذكرت فيها تفاصيل القسم.. ما زلت أذكر الأثاث قطعة قطعة كأنها أمامي الآن، وهو وسط تلك الفوضى واقفًا يستقبلني بالقول: هلو.. فأرد عليه: هلو تو... نتحدث ونضحك على كل شيء، كان مرحًا وعنيدًا، وكنت مشاكسة (ولم أزل)...

لا أعلم كم مرَّ على أجازتي الإجبارية، أول الأمر كان يكلمني كل يوم، فجأة انقطع عن الاتصال، لكنه واظب على زيارة أحلامي، كانت له عينان بلون القهوة وكتفان بمساحة الحلم وشيء ما يدور في رأسه دائمًا يصر على إخفائه عني، كنت أجاهد لأحافظ على توازني أمامه...

رن الهاتف، رفعت السماعة، وأجبت: ألو.

جاءني صوت غريب ذكرني به، سألته عنه، قال : إنه خارج الوطن منذ عام.

أقفلت الخط وأطرقت ثوان أتذكر فيها نبرة صوته الذي جاء عبر المذياع قبل أقل من ساعة، كان يقول درجات الحرارة سبع عشرة درجة وثلاث درجات. إنها ليست درجات حرارة بغداد في تموز بالتأكيد.. قلتها لنفسي، وأسرعت إلى المذياع.. كان المؤشر ما زال على المحطة نفسها / إذاعة بغداد.

لحظات وعاد الصوت يقرأ صحف الصباح، كان هو الصوت الذي ما غاب عني لحظة واحدة..

عدت إلى الهاتف مجددًا وطلبت الرقم، رن الهاتف.. ورن.. وظل

يرن ...

ويرن ...

ي

ر

ن

• • •

دولاب الأرض

دائمًا حينما كانت العيون مشدودة إلى الأعلى، كانت عيناي تتجهان إلى الأرض، حيث كان دولاب الفضاء يدور براكبيه، يرفعهم إلى أقصى ما يستطيع ويعيدهم إلى أسفل ما يريد...
من هذا الذي يقتنع أن عجلة تدور على مركز ثابت تستطيع أن تنقله إلى الفضاء ؟؟
مسرورين كانوا يركبون العربات أزواجًا أزواجًا، ويعودون من رحلتهم إلى الفضاء بدوار في الرأس وإحباط في الأحلام...
لا شيء في هذا الكون أسوأ من حقيقة كبيرة تتحول إلى سراب.. سراب في مهب الريح.

أتطلع في وجوه النازلين، أتذكر ثور الساقية ذلك الذي يدور ويدور حول محور ثابت، وحده من يظن أن لرحلته نهاية يجب الوصول إليها فيواصل الدوران.. تمامًا مثلما تدور الأفكار في رأسي الآن، رأس ثابت على جسد واقف على أرض تدور من حوله كأنها دولاب الفضاء...
عشرات الأزواج من الأقدام حولي تتوجه إلى عربات الدولاب لتبدأ رحلتها الخائبة إلى الفضاء، إلا زوجًا واحدًا يقف جواري

على بعد مسافة غير محسوبة بين أربعة أقدام، مسافة مليئة بفراغ يعج بكل شيء مهيأ للانفجار أو الرحيل في أي لحظة من دون دولاب...

أرفع عيني لأواجه دولاب الفضاء فيدور رأسي.. أغير اتجاه نظري إلى الأرض فأجدها تدور هي الأخرى، أجوب بنظري بين الدولابين كلاهما يدور ودولاب ثالث يقف جواري يدور هو الثالث... أيهم سيصل إلى الفضاء حقيقة ؟

منذ بدء البدء والأرض تدور مكانها، ودولاب الفضاء مستمر في الضحك على راكبيه، يمضي وقت ويأتي وقت.. حتى بات لا وقت للوقت كي يفكر في الاختيار بين الدواليب التي ما عاد سالكًا أمامي منها إلا الثالث !!!

كان دولابًا يحيط نفسه بضجة ساكنة توحي برذاذ مطري مرتبك تمنحه عيناه غمامة حزن أسطوري، منحني قبل لحظة القرار اعترافًا بدا لي كأنه خارج بعد دوار ممتد من أقصى ارتفاعه إلى أقصاه.

غابت الشمس وصمتت الأرض لتتبدل السنن، تتغير اللهجات وتكف الأرض ودولاب الفضاء عن الدوران، لم يبق لي خيار سوى ركوب الدولاب قي رحلة للفضاء... لا شيء أجمل في هذا الكون من حلم كبير يتحول إلى حقيقة.

يدور الدولاب ولا أصاب بالدوران.. الرحلة ما زالت في البداية، فالبحر يبدأ حيث تكون المياه عميقة، لذلك السباح الماهر لا يتعب نفسه عند الشاطئ، وكذلك فعلت، لم أتعب نفسي بالنظر إلى عربات الدولاب ومدى ارتفاعه أو إلى أي مدى سيصل بي، كل ما كان يدور في رأسي هو لحظة الوصول إلى عمق المياه، إلى أعلى مكان في الدولاب أجمع فيها كل ما أملك ولا أملك من أجل الوصول إلى الفضاء، فضاء ذلك الدولاب الواقف على قدمين.. يصارع رباطة جأشه للخروج إلى الفضاء.

يدور ويرتفع تاركًا كل ما كان فوق أسفله، دولاب الفضاء، الأرض، الأشجار، العصافير، السنين الماضيات، و.....

عندها حاصرت عواطفنا الحزن وقضت على بيادر الآهات التي ترعرعت في تلك المسافة التي كانت تفصل بيننا، اخضرت الأغصان المتيبسة في الفضاء وقصدتها الفراشات الملونة اشتياقًا لا ملادًا، انحسرت الصحارى التي امتدت إلى حدود العمر الجنوبية في سنوات الدوران بعيدًا عن دولاب ثالث يحفز الأرض لاستقبال المطر الربيعي وينطق بلسان الأشجار والجدران والجرح الصامت.

كان الدولاب يواصل مسيرته إلى الفضاء بخطى ثابتة قاطعًا المسافة بينه والفضاء والآخرين بسرعة متفاوتة هادئة كالسكون، صاخبة كالبحر، التفت إليه كلما ابتعدت الأشياء من

حولي، سؤال واحد يعتمر في رأسي الدائر: هل سأصل إلى الفضاء، أم سأعود خائبة إلى مكاني.. كحال ركاب عربات دولاب الفضاء ؟!!!

أتأمله بدهشة الرؤية الأولى، الفرحة الأولى، اللهفة الأولى، والأمل الحلم الذي يتألق بين أربعة عيون تفتعل الهدوء وسط صخب كل شيء ليبدو كل شيء هادئًا.

يأخذني الدولاب إلى أبعد مما أتوقع، أغفو وأصحو عشرات المرات، أتساءل هل يحلم الدولاب بالدوران أم أنني من يحلم برحلة في أحد عرباته ؟!!!

فكرت في قرارتي، هل علي أن أوقفه حيث وصل أم اتركه يسير بي إلى حيث توصله رحلته المجهولة ؟!!!

تناهى إلى مسامعي صوت أنفاسه وعزف أصابعه، أثار فيّ رغبة عارمة بالوصول إلى الفضاء الآن، انتبه إلى نفسي فجأة أجدني أدور في فلك دولاب يعلو دولابين يهمس لي وحدي، يدور بي وحدي، في حين تواصل عشرات الأزواج من الأقدام لهاثها من أجل الوصول إلى دولاب فضاء يحملها إلى أعلى ما يستطيع ويعيدها إلى أسفل ما يريد وعيونها ترنو إلى الأعلى دائمًا، إلا عينايّ كانتا تتسمران على الأرض تتمتعان في النظر إلى قاعدة دولاب ثالث وحده من يعرف الطريق إلى الفضاء.

• • •

حسد

كانت بمنتهى الذوق والتناسق، دارت حول عنقه دورة كاملة.. مرَّت أصابعه على كل خيط من نسيجها الحريري.. فانسدل طرفاها بزهو يتوسدان صدره.

كل صباح يكرر طقسه الخاص معها، كم أحسدها... أقرب من كل الأشياء إليه... أكثرها التصاقا برقبته وصدره، معها يقضي كل مشاويره، ساعات وأيام يقضيها في البحث عن لون أو نوع آخر يضيفه إلى مجموعته منها، لها النهارات... أدري، أما المساءات فهي لي، حين يستغني عنها، أتسلل إليها، أحاول أن أكتشف أسرارها، آخذها بين يدي، ألمسها، أتمعن فيها.. علها تحدثني عن يومها، عن الناس الذين التقاهم، عن النساء، لكنها بعيدًا عنه تبدو شيئًا لا قيمة له، مجرد قطعة قماش لا أكثر، قطعة قماش ما زالت أمنيتي باحتلال مكانها تؤرقني.

ما الذي سيحدث لو تبادلنا المواقع يومًا أو بعض يوم.. في الصباح أستدير.. مثلما تستدير هي، وحين تحكم عقدتها أحكم عقدتي بحذر أكثر منها، أطوقه مثلما يحكم طوقه حولي في الغياب والحضور، مثلما يستلبني حرية الحركة إلا الأطراف التي يحرص على امتلاكها الحرية الكاملة بعيدًا عنه..

أحيانًا أشد على العقدة أكثر بقدر غيظي منه كلما اعتنى بها.. أتقمص دورها، أتدلى على صدره.. لا أحد يراه من دوني.. أنا.. سر أناقته وجندي ذوقه المجهول.. أريد أن أهمس في أذن كل معجبة، أنا من اختار له ربطات العنق...

يا رب.. هل حولني جنوني هذه الليلة إلى ربطة عنق حقيقية ؟..

عندما يتخلى عني في المساء.. أغفو بين ثنايا خزانة الملابس أقص على الأربطة الأخرى رحلتي معه. من المؤكد أنني أفتعل بعض الأقاصيص لأغيظهن.. أحكي لهن كم مرة نظر في المرآة إلي، ومسدني بكفه بين ثانية وأخرى، أصحابه في العمل سألوه عني.

تلك الليلة.. لن أنام.. سأكون سندريلاه، لكن ما الذي ستفعله تلك الربطة التي ستحتل مكاني في اليوم التالي.. هل ستجيد دوري، هل تحتمل انشغاله عنها، ربما ستتبخر قبل أن ينتهي يومها.

مسكينة، ربطة العنق.. لن يبالي لأمرها.. وسيطلب مني مرافقته لشراء أخرى.. لون آخر.. حجم آخر.. ونسيج آخر يصنع منها العقدة نفسها.. تستدير حول عنقه كل صباح..

كم أمقتها.. تلك... ربطة العنق.

• • •

❖ ❖ ❖

آمنة الذهبي

- كاتبة وقاصة وإعلامية عراقية، من مواليد بغداد، عام ١٩٧٦
- كاتبة وباحثة في التاريخ السياسي والاقتصاد
- مخرجة أفلام وثائقية وتسجيلية
- حاصلة على بكالوريوس إعلام
- ماجستير تاريخ سياسي في الأمن الثقافي العربي في ظل النظام الدولي الجديد
- دكتوراة في السياسة الدولية / سياسة الاحتواء الأمريكية تجاه الشرق الأوسط ١٩٧٣-١٩٩٠
- عضو اتحاد المؤرخين العراقيين
- عضو نقابة الصحفيين العراقيين والعرب

- الإصدارات :

- الإحساس بالتحدي/ الأمن الثقافي العربي في عالم متغير: دراسة. اتحاد المؤرخين العرب ٢٠٠٦
- امرأة تحت الاحتلال : قصص قصيرة. مؤسسة شمس للنشر والإعلام بالقاهرة، ٢٠١٢م
- عودة الإله نيرو : رواية (قيد الإنجاز)

- أخرجت عدد من الأفلام الوثائقية والتسجيلية، منها :

- أوقفوا العنف : فيلم عن معاناة النساء في العراق إبان الاقتتال الطائفي ٢٠٠٧م
- حرية مشروطة : وثائقي عن حرية التعبير في عراق ما بعد ٢٠٠٣ ، أنتج عام ٢٠١٠م
- أقلية في خطر : وثائقي عن مخاطر هجرة المسيحيين من العراق، ٢٠١١م
- شهرزاد صامتة : وثائقي عن واقع حرية المرأة في العراق، وما تعانيه من إجحاف قانوني في مجتمع شرقي.

- الموقع الإلكتروني : www.aminagolden.jeeran.com
- البريد الإلكتروني : aminagolden@yahoo.com

الفهرس

- تقديم : د. حسين سرمك حسن ٥

▪ طفولة مستعادة

١. أنا قلم الرصاص ٩
٢. الظل يحلق أيضًا ١٢
٣. صناديق عتيقة ١٤
٤. أمنيات مستمرة ١٦

▪ الهمرات تحتل الرؤوس

١. أسلاك شائكة ٢١
٢. فارس السراب ٢٣
٣. ميدوزا عراقية ٢٥
٤. امرأة تحت الاحتلال ٢٨
٥. الغُزاة ٣٠

▪ الجسور

١. جسر يحترف الجنون ٣٥

٢. هذيان جسر مهدد بالسقوط ٣٨
٣. كتابة من نوع خاص ٤٠
٤. الخيول تهجر المضمار ٤٢

▪ الليالي

١. قدح ومطر .. أخر الليل ٤٧
٢. فنجان ... وحلم مشترك ٥٠
٣. انقلاب ٥٢
٤. حديث القلوب ٥٥
٥. وعاء حكايات ٥٧
٦. وفاء الضحية للجلاد ٥٩

▪ دوران خارج عن الْمألوف

١. ديكتاتورية لُغة ٦٣
٢. متاهة في الجدار ٦٥
٣. رحيل العالم الأول ٦٨
٤. لحظة خارج الزمن ٧٠
٥. دولاب الأرض ٧٣
٦. حسد ٧٧

شمس
للنشر والإعلام

(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net